بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي عمَّ برحمته جميع العباد، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال ففازوا ببلوغ المراد أحمده حمد معترف بجزيل الإرفاد[١]، وأعوذ به من وبيل[٢] الطرد والإبعاد وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. شهادة أدخرها ليوم المعاد وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. موضح طريق الهدى والسداد. قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد، صلى الله تعالى عليه، وعلى آله الأكرمين الأجواد صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد[٣].

وبعد،،

فإن الدنيا دار بلاء واختبار والإنسان في هذه الحياة مبتلَى كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قد يصاب المرء بمصيبة يجزع ويحزن ويضيق صدره وينقطع فؤاده؛ وهذه المصيبة ما أصابته إلا بقضاء الله سبحانه وقد تكون خيرًا للعبد وهو لا يدري قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قد يكون الخير في المرض، فَقْد الولد، فَقْد الوظيفة، خسارة الصفقة فسبحان مقدِّر الأقدار فقد يكون ظاهر الأمر شرًّا لكن في داخله وفي عاقبته الخير الكثير. فكم من أمر حزن له الإنسان الأيام بل الشهور ثم تبين بعد ذلك أن هذا المصاب وهذا البلاء خير له.

---

(١) الإرفاد: الإعانة والإعطاء.

(٢) وَبِيل: أي ثقيل وخيم.

(٣) مقتبس من مقدمة «منهاج القاصدين».

obeikandl.com

وانظر كيف طُرد الرسول ﷺ من مكة، فأقام في المدينة دولة ملأت سمع التاريخ وبصره.

وسُجن أحمد بن حنبل وجُلد، فصار إمام السنة، وحُبس ابن تيمية فأخرج من حبسه علمًا جمًّا، ووضع السرخسي في قعر بئر معطلة فأخرج عشرين مجلدًا في الفقه، وأقعد ابن الأثير فصنَّف «جامع الأصول»، و«النهاية» من أشهر وأنفع كتب الحديث، ونفي ابن الجوزي من بغداد، فجوَّد القراءات السبع، وأصابت حمى الموت مالك بن الريب فأرسل للعالمين قصيدته الرائعة الذائعة التي تعدل دواوين شعراء الدولة العباسية، ومات أبناء أبي ذؤيب الهذلي فرثاهم بإلياذة أنصت لها الدهر، وذهل منها الجمهور، وصفَّق لها التاريخ[1].

فانظر -رحمك الله- كيف كانت هذه المصائب التي ظاهرها شر مستطير. تحمل في طياتها الخير العميم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

فالألم ليس مذمومًا دائمًا ولا مكروهًا أبدًا فقد يكون خيرًا للعبد أن يتألم فالدعاء الحار يأتي مع الألم والتسبيح الصادق يصاحب الألم. إذن فلا تجزع من الألم ولا تخف من المعاناة فربما كانت قوة لك ومتاعًا إلى حين... ربَّ ضارة نافعة.

كم من عاصٍ مسرف على نفسه في المعاصي لم يستفق من غيه ومعصيته إلا بعد ما أصيب بحادث، كفقد عضو من أعضائه، حاسة من حواسه أو إصابة في بدنه، فقد حبيب إلى قلبه من قريب أو صديق أو غير ذلك فكانت هذه المصيبة هي سبب التوبة والأوبة والرجوع إلى الله.

كم من إنسان عاش حياة الجريمة وفعل من الموبقات ما لا يتخيله عقل فلما حكم عليه بالموت (الإعدام) استفاق من غيه وتاب إلى مولاه وندم على ما فرط منه واغتنم ما بقي له من أيام في الدنيا في الصلاة والصيام والذكر والدعاء. فختم الله له بالسعادة.

(١) «لا تحزن» لعائض القرني.

كم من إنسان ابتلي بفقد حبيب وجزع لذلك لكن قد يكون هذا الحبيب من صديق أو ولد هو سبب شقاء العبد كما في قصة موسى والخضر، فالغلام الذي قتله الخضر لو عاش كان سيكون سببًا في كفر والديه المؤمنين فانظر لرحمة الله بعباده، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

قد يحزن الإنسان لفقد المال، وهذا المال هو سبب شقائه فيصرفه الله عنه رحمة به فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه»[1]، وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: «إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قدر خير له».

فما يصيب العبد من مصائب لعله خير له وهو لا يدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقضي الله قضاءً للعبد إلا كان خيرًا له»[2].

فقد يجري الله على العبد من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته.

قال ابن مسعود: «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى يتيسر له فينظر الله إليه فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه فيظل يتطير يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل».

وهذه المصائب مكفِّرات.

---

(١) «صحيح الجامع».
(٢) أخرجه أحمد عن أنس.

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»(١). انظر! كيف كان هذا البلاء نعمة من الله والعبد لا يدري.

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع، فيقول الله عز وجل: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»(٢).

فالله يبتلي العبد ليكفِّر عنه سيئاته أو ليعلي منزلته عنده.

فالمؤمن يعلم أن الدنيا سويعات قليلة سرعان ما تنقضي فالعبد يجب عليه أن يسلم لقضاء الله ويعلم أن تقدير الله خير له ولا يقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا. فهذا ليس فيه نفع للعبد، والأولى عند ذلك شهود مشهد القدر وأن الله عز وجل قدر له ذلك، وشهوده بأن الله عز وجل حكيم وأنه لطيف وأنه يقدر للعبد ما هو خير له في الدنيا والآخرة.

فمن عباد الله عز وجل من لا يصلحه إلا العافية فإن مرض أفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا السقم فإن صَحَّ أفسده ذلك، ومنهم من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن أغناه الله عز وجل أفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا الغنى وإن أفقره الله عز وجل أفسده ذلك، فالله عز وجل يدبر أمر عباده، بعلمه بما في قلوبهم إنه عليم خبير.

فقدر الله عز وجل نافذ، فمن لم يصبر صبر الكرام سلي سلو البهائم.

وليعلم العبد أن الله عز وجل إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به.

فالرضا هو باب الله الأعظم، وجنة الدنيا ومستراح العابدين، والصبر واجب حتم والرضا مندوب إليه والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) متفق عليه.
(٢) حسن: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٠٨).

والرضا أعلى من الصبر وجزاء الرضا من العبد رضا الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ يقدر للعبد البلاء فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط.

فهذا الكتاب محاولة مني لتوضيح وترسيخ هذه المسألة وبيان أن تقدير الله عَزَّوَجَلَّ خير للعبد. وقد يطلعنا الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك وقد لا يطلعنا. لكن الواجب علينا التسليم بقضاء الله.

ورتبت هذا الكتاب كالآتي:

١- وجوب الإيمان بقضاء الله.

٢- لا تحزن وارضَ بما قسم الله لك.

٣- فوائد الإيمان بالقضاء والقدر.

٤- ذكر جملة من القصص التي تجلي لنا هذه الحقيقة.

obeikandl.com